مجلة مقامات
EISSN 2253-0363: / ISSN : ISSN2543-3857
المجلد 05 / العـدد: 01 (2021)
ص 341- 358

مفهوم الشعر عند النقاد الجزائريين _"رمضان حمّود" أنموذجا-

The concept of poetry among Algerian critics _ "Ramadan Hammoud" as a model.

الباحث(ة)	مؤسسة الانتماء	البريد الالكتروني
د. غول شهرزاد Dr Ghoul Chahrazed	جامعة عبد الحميد بن باديس،مستغانم،الجزائر.	chahrazed.ghoul@univ-mosta.dz

ملخص:

يعدّ رمضان حمود من الأدباء المجددين الذين يدعون إلى الإصلاح، عملوا على إيصال الفكرة مضمونا وليس شكلا. فجمع بين الشعر والنقد، سعى إلى تطوير النظرية الشعرية في العصر الحديث، ودعا إلى التجديد في عناصر الشعر الذي اشتغل به وجعل منه مجالا صادقا للإبداع وخدمة المجتمع.

نروم في هذه الورقة البحثية إلى تسليط الضوء على جهود رمضان حمود الشعرية والنقدية ومدى تأثيرها على المجتمع العربي.

كلمات مفتاحية: النظرية الشعرية، النقد، رمضان حمود، التجديد، الإبداع الفني.

Abstract:

Ramadan Hammoud is considered one of the innovated writers who call for reform. They worked to convey the idea in substance, not form. He combined poetry and criticism, he sought to develop poetic theory in the modern era, and called for renewal in the elements of poetry that he worked with and made it an honest field for creativity and community service.

In this research paper, we aim to shed light on the poetic and critical efforts of Ramadan Hammoud and the extent of their impact on Arab society.

Keywords: Poetic theory, criticism, Ramadan Hammoud, renewal, artistic creativity.

1. مقدمة:

إنّ المتمعّن في المحطّات التاريخية التي لها علاقة بالجوانب الفكرية والأدبية يدرك أنّ تطور ونهضة الأمّة العربية محتكم بنهضة آدابها وتطوره وازدهاره وهذا ما أثبته جلّ المفكّرين والمثقفين حيث ظهرت نخبة من المجدّدين الذين يدعون إلى الإصلاح، فعملوا على إيصال الفكرة مضمونا وليس شكلا، ورمضان حمود واحد من هؤلاء، إنّه الشاعر والناقد الجزائري سعى إلى تطوير النظرية الشعرية في العصر الحديث ودعا إلى التجديد في عناصر الشعر.

فمن هو رمضان حمّود؟ وما هي أبرز القضايا النقدية التي عالجها؟

وكيف عرّف الشعر؟ وما الجديد الذي أضافه؟

وقبل أن نجيب عن هذه التساؤلات لا بد من تعريف هذه الشخصية الشابة، الصالحة، الفذة التي وهبت روحها لوطنها وشعبها، وكانت نموذجا حيا تفتخر به الجزائر.

2. السيرة الذاتية لرمضان حمّود:

وُلِد رمضان حمود بن سليمان بن حمّو يوم الأحد العاشر من رمضان عام 1324 هـ الموافق لـ 28 أكتوبر عام 1906 م بوادي ميزاب بغرداية في جنوب الجزائر، نشأ وترعرع وحده وسط عائلة متدينة محافظة، انتقل مع والده إلى غليزان وهو ابن ستّ سنوات فتعلّم بها القرآن الكريم ومبادئ اللغتين العربية والفرنسية وظلّ ينتقل بين المدينتين حتّى سنّ السادسة عشر حيث سافر إلى تونس في طليعة البعثات التي كان يرسلها الشيخان ابراهيم طفيش ومحمد الثميني، فدرس الأدب والمنطق والنحو والعلوم الإسلامية لمدّة ثلاث سنوات بين مدارس السلام: "المدرسة القرآنية الأهلية والمدرسة الخلدونية ثم جامع الزيتونة"، وافته المنية عن عمر يناهز 23 سنة بمسقط رأسه في 26 نوفمبر 1929 م([1]).

من الألقاب التي أطلقها عليه ابن باديس _عندما نشر إنتاجه بمجلة الشهاب_ الأديب الفنان، الوطني، وقد نشر صورته بعد نعيه تكريما له، مطلقا عليه فقيد الأدب والنهوض([2]).

3. السيرة الأدبية لرمضان حمود:

إنّ الموت الذي احتضر رمضان حمود جعل إنتاجه الأدبي محدودا، إذ أنّ حصيلة ما نشره من شعر بين سنتي (1925م _1929م) لم يتجاوز ثلاثين مقطوعة([3])، أشهرها "لا تلمني في حبّها وهواها" "الحريّة" كما نشر سلسلة من المقالات عن "حقيقة الشعر وفوائده" و"الترجمة وأثرها في الأدب" سنة 1927م، كما نشر كتابه "بذور الحياة" سنة 1928م، وقصّة "الفتى" سنة 1929م.

4. ما قيل عنه:

ظهر الاتجاه الرومانسي في الجزائر على يد الشاب اليافع "رمضان حمود" (1906م_1929م) وقد يكون حسب يوسف ناوري "أول شاعر رومانسي في سماء المغرب العربي، فقد تمثل نظريا مفاهيم الرومانسية ودعا إلى تحرير الممارسة الفردية من القيود التي كبلتها قرونا، والحاجة إلى التعبير عن صوت الأنا وإحساسات الفرد حيث يكون الشعر وحي الضمير وإلهام الوجدان وقلب الطبيعة النابض"([4]). فحمود رمضان قدم لنا مفهوما جديدا للشعر على أنه من الشعور، وكان ينطلق من مفهومه للتجربة الشعرية ويريد أن يتحول من اهتمامه بالصنعة الشكلية إلى الاهتمام أكثر بالمضمون... مضمون يستوعب واقع الأمة العربية، يتغنى بآلامها وآمالها، وأن الأولى بالشعراء أن ينصرفوا عن هذا الشعر الذي يخدم الخواص وأرباب القصور، إلى شعر يقود الجماهير ويهتم بقضاياهم([5])، وهذا راجع إلى اتصاله بالرومانسية الفرنسية وروادها، وترجمته لبعض أعمالهم أمثال "لامارتين" و"فيكتور هيغو". كما تأثر بالمشرقيين أيضا أمثال "جبران خليل جبران" و"أمين الريحاني" خاصة عندما دعوا إلى الشعر المنثور.

لم يعمّر رمضان حمود إلا ثلاثة وعشرون عاما ولكنه كان كاتبا بارعا وصحفيا ماهرا وشاعرا رائدا من الذين نفثوا أنفاس الثورة العارمة في الشعر بعد حماسة الأمير عبد القادر الجزائري.

5. مفهوم الشعر عند رمضان حمود:

انشغل "رمضان حمود" بالشعر انشغالا كبيرا وجعله مجالا صادقا للإبداع والفن، يعبّر فيه عن صدق التجربة والمعاناة، فالشعر في نظره هو "النطق بالحقيقة العميقة الشاعر

بها القلب، والشاعر الصادق قريب من الوحي([6])، وأن يقول الشاعر بيتا صادقا خير من ألف مجلد لأن العبرة بالإجادة والتحقيق لا بالإكثار والتلفيق([7])، وكأن حمود يتنبأ بقصر عمره الذي سيكون السبب الأول والمباشر لإنتاجه المحدود.

ويحرص الناقد على ضرورة وجود الصدق الفني، مطبقا هذا على نفسه أولا بقوله: "لست من الذين يكتبون للتسلية أو الترويح عن النفس، ولا من الذين يتلذذون بالعبارات المنمقة الرقيقة... ولكني أكتب لأفيد وأستفيد، أكتب لا ليقال أنه كتب، بل ليقول لي ضميري "إنك قمت بواجبك وأديت ما عليك فكن مطمئنا"([8])، وهو بهذا يظهر لنا أنّ الصدق الفني أساس نجاح التجربة الفنية.

وحارب الغيرية التي شاعت عند الشعراء الكلاسيكيين الذين اهتمّوا بالموضوعات الغربية عن ذواتهم ووجدانهم وأكد على الصدق الفني في الشعر كما ذكرنا هذا في قوله سابقا.

وبهذا كان شعره تعبيرا نابعا عن مواقف ذاتية نابعة عن معاناة وتجربة مما أضفى عليها ميزة الحرارة العاطفية والصدق، فقد جعل الذاتية والصدق الفني مقياسين هامين وضروريين لنجاح العمل الشعري، وقد عبّر "رمضان حمود" بصدق عن واقع الأمة ومعاناة الشعب المقهور، وكانت ذاتيته متفاعلة مع الوجدانية الجماعية، وفضل أن تكون لغته متماشية مع العصر، متطورة معه، سهلة المتناول من طرف المتلقين لها، بسيطة تصل إلى النفس الانسانية بدون جهد أو تكلّف يقول "لا يسمى الشاعر شاعرا عندي إلا إذا خاطب الناس باللغة التي يفهمونها بحيث تنزل على قلوبهم نزول ندى الصباح على الزهرة اليابسة، لا أن يكلمونا في القرن العشرين بلغة امرئ القيس وطرفة والمهلهل الجاهليين الغابرين"([9])، ومن السياق العام لهذا النص، يتضح لنا أن الناقد يدعو إلى عدم التصنع والتكلف ويؤكد لنا في نص آخر أن نجاح اللغة الشعرية في تأدية دورها مرهون بابتعاد الشعراء عن مزلقين اثنين وهما التكلف والتنطع في اللغة([10]). ويخاطب من يظنون أن الشعر مجرد وصف للألفاظ وتنميق وتزويق لها وتقطيع للأوزان، فيقول:

فقلت لهم لما تباهوا بقولهم ألا فاعلموا أن الشعور هو الشعر

وليس بتنميق وتزويق عارف فما الشعر إلا ما يحن له الصدر([11])

فالشاعر هنا يهاجم المتكلفين الذين لا يعبرون عن سابقة أدبية أو عن قارئ يحب الجمال ويهفو إليه، وإنما ترى في الشعر لغة صعبة وتكلفا.

يركز "رمضان حمود" على الإحساس الصادق ويجعله أساس نجاح التجربة الشعرية، فلا ينجح الشاعر في نظمه ويؤثر شعره في السامع إلا إذا كان قد عبّر عن عاطفته بصدق وإخلاص. فالأدب الذي "لا يصدر عن نفس حساسة لا يتسرب إلى أعماق النفوس المنيرة الحية بل يخلد طويلا، ولا يلبث أن يقصي عليه سلطان النسيان والإهمال([12])، وحذر حمود الأديب من أن يقدم على الشعر والأدب بغرض النحو والصرف أو العروض والقوافي أو البلاغة والمادة اللغوية... ما لم يسعف كل ذلك في نفسه وازع قوي نحو التجربة الأدبية([13])، فحمود لم يخرج عن السائد والمألوف الذي أتى به المذهب الرومانسي الذي أعطى أهمية عظيمة للعاطفة في التجربة الفنية.

وقد تأثر بشابلن "النطق بالحقيقة، تلك الحقيقة الشاعر بها القلب"، والشاعر ذو فكر ثاقب، وعقل صائب، وذوق سليم، وهذه المزايا الثلاث لا يتوفر عليها إلا شاعر متمكن، لذا اعتبر "رمضان حمود" المقلدين، وعبيد التقليد _كما سماهم_ لا يطرب لهم سامع ولا يحرك لهم ساكن.

فالشعر عنده عبارة عن "تيار كهربائي مركزه الروح، وخيال لطيف تقذفه النفس لا دخل للوزن والقافية في ماهيته، وغاية أمرهما أنهما محسنات لفظية، اقتضاها الذوق والجمال في التركيب لا في المعنى، كالماء لا يزيده الإناء الجميل عذوبة وملوحة، وإنما حفظا وصيانة من التلاشي والسيلان"([14]). وفي موضع يؤكد الشاعر والناقد "رمضان حمود" على ضرورة توفر الموهبة الشعرية عند الشاعر، فيرى: "بأن الشعر ليس صناعة ولا بضاعة، وإنما إلهام وجداني ووحي الضمير، وموهبة مخفية في ذات الشاعر تولد مع ميلاده وتظل كامنة فيه، فهي في اختفائها كاختفاء النار في الحجر، إلى حين بروزها.([15])"

قارن "رمضان حمود" بين الشاعر والمصور، في الاهتمام بالتدقيق في النظر إلى الشيء المصور حيث يرى: "بأن كلاهما أجير للفن والجمال، فهما مدينان بالإجادة والتدقيق في النظر، والبحث، فهذا في المحسوسات وذلك في المعنويات فكما أن المصور لا يقدر أن يتقن

صورته إلا إذا تزود بجانب وافر من الشعور، والعالم، وكان الشكل والمنظر الذي يريده أمامه يراه بعينيه، فكذلك الشاعر لا طاقة له في امتلاك العقول، والأخذ بأزمة النفوس، إلا للسامع عن خواطره الخاصة والعامة، لا بمجرد تنميق وتزوير، وتكليف مشين، وكذب فادح، فإن هذا مما ينقص من قيمة الشعر والشعراء في الأمة النبيهة.([16])"

فالشعر عنده شعور، وإحساس صادق، ربطه بالطبيعة، ويتصدى لمن يعتبر أن الشعر وزن وقافية قائلا :

فقلت لهم لما تباهوا بقولهم ألا فاعلموا أن الشعور هو الشعر
وليس بتنميق وتزوير عارف فما الشعر إلا يجود به الصدر
فهذا خرير الماء شعر مرتل وهذا عتاد الحب ينشده الطير
وهذا زئير الأسد تحمي عرينها وهذا صفير الريح ينطحه الصخر
وهذا قصيف الرعد في الجو ثائر وهذا إغراب الليل يطرده الفجر([17])

أورد "رمضان حمود" مجموعة من التعاريف حول "ماهية الشعر والشاعر" في مقالة (الشعر والشاعر)، والملاحظ أن هذه التعاريف سيطر عليها عنصران هما: الطبيعي والنفسي (روحانية النفس، وحب الطبيعة)، ومنها قوله:

_الشعر وحي الضمير، وإلهام الوجدان...

_الشعر مرآة، ينعكس عليها أشعة الحب والجمال.

_الشعر هو قلب الطبيعة النابض.

_الشعر نفس وهدية، تقدمها الطبيعة الهادئة إلى القلوب الكسيرة([18]) .

كما نجد أن "رمضان حمود" رفع من شأن الشعراء ومكانتهم، في تطوير مجتمعاتهم بقوله :

_الشعراء بذور الحياة ومؤسسو النهضات.

_لو لم تكن للشاعر مزية لاإنسانية، لكفته فخرا.

_الشاعر لا ينتصر لحزب دون حزب آخر، لكن يجب أن يكون أداة إصلاح وأدب للجميع.

_الشعراء روح الشعوب، فإذا نصحوا لها سارت وتقدمت، وإذا خانوها فالسقوط والاضمحلال حظها([19]).

ويصل به الحماس إلى حد اعتبار الشعر الذي لا يخدم المجتمع، خيانة كبرى، فيقول: "إن الشعر الذي لا يحرك نفوس العامة، ولا يذكرها بواجبها المقدس، ووطنها المفدى، فهو خيانة كبرى وخنجر مسموم في قلب المجتمع"([20]).

6. الرومانسية في شعر رمضان حمود:

يشير النقاد إلى أن البداية الحقيقية، للاتجاه الرومانسي في الشعر الجزائري، بدأت مع بداية الوعي الاجتماعي، والسياسي، نتيجة الأوضاع المؤلمة التي فرضها المستعمر فطغت الكآبة والحزن آنذاك على الشعر الجزائري، كما أن ظهور الرومانسية في فرنسا والثورة على الظلم، حرك المشاعر، والإحساس بالذات في نفوس الجزائريين، وقد قيل أن موجة الرومانسية تنتشر عادة في المجتمع.([21])

وقد تبلور الاتجاه الرومانسي في الجزائر، نتيجة التأثر بالإنتاج الأدبي الوافد من المشرق العربي، الذي سطع فيه نجم الشعراء الرومانسيين، ولقد أشار النقاد إلى تأثر "رمضان حمود"، وانتقاده الشديد للشاعر المصري أحمد شوقي، مما يؤكد صلة هذا الشاعر بآراء المدرسة الرومانسية الفرنسية.

كما أقر النقاد أن الرائد الأول للاتجاه الرومانسي هو "رمضان حمود"، والذي كان متأثرا إلى أبعد حد بأدب "جبران خليل جبران"، ومعجبا بآرائه الثورية الوطنية خاصة متابعا لإنتاجه، وقراءاته، لا سيما عندما كان بتونس.

وقد جاء في كتابه "بذور الحياة" من حبه الشديد للحرية وإيمانه العميق بالوطن والوطنية، ودعوته للثورة والتمرد، وتقديسه للطموح والتطور، وهجومه على التقاليد الأدبية، التي تعنى بالبهارج اللفظية، والزخارف البديعية، وإيمانه بالأدب المبني على صدق الشعور، والتعبير على الصدق، وركونه إلى الطبيعة، كل هذا يرجع إلى أن "رمضان حمود" قد تأثر بهذه الأفكار من خلال قراءته لكتب "جبران خليل جبران"، ويعد من الأوائل الداعين إلى الاحتكاك بالآداب الغربية، والاستفادة منها ووضح ذلك توضيحا كاملا مفصلا في مقالة طويلة، نشرها في "الشهاب" تحت عنوان "الترجمة وتأثيرها في الأدب" فهو يذهب في القول بأن: "الترجمة من أركان الأدب التي لا يستهان بها، فإذا كان أدب كل أمة هو مجموع تأثيراتها

القلبية وانفعالاتها الروحية، وزبدة تمخضات عقول بلغاتها، كالرأس من بقية جسدها، فالترجمة والنقل الصحيح من لغة أجنبية إلينا، عينها تلك الرأس.([22])"

إن أهم ما دعا إليه الرومانتيكيون هو التحرر من القواعد التي اعتبروها خانقة لروح الشعر خاصة تلك القواعد والموضوعات التي تمس تجربة الاديب وتقيد مواهبه، فاتسم شعره بالخيال والأحلام والأحاسيس والطبيعة... والشاعر "رمضان حمود" لم يخرج عما سنه الرومانسيون إذ يؤكد أن الشعر تيار كهربائي مركزه الروح لا دخل للوزن ولا القافية في ماهيته _سبق وأن ذكرنا قوله كاملا_ وهو بذلك يشير إلى "مزالق الجمالية العربية التي اعتمدت في ذوقها الفني على العقل الذي قادها إلى الاتجاه الحسي الذي يعتمد على القاعدة والشكل، مما انتهى بها إلى الصناعة والتكلف، فقد كان ارتباط الشعر بالعقل يلتقي مع مفهوم الصناعة التي نجدها واضحة لدى النقاد البلاغيين العرب منذ القرن الثالث مما جعل الشعر ضربا من القول يكتسب تعاليم الأصول ويمارسها طويلا.([23])"

وعلى الرغم من اعتناق "رمضان حمود" المذهب الرومانسي إلا أن اعتناقه لم يكن شاملا حريصا في أخذ ما يستحق أن يؤخذ ذلك حين تجنب التورط في أمور تسيء إلى الدين، لم يطلب أكثر من الحرية والعيش بسلام، وأكثر ما ولع به من مبادئ هو حبه للعزلة والانطواء وتلك المسحة التشاؤمية وميله للطبيعة وربما كان هذا ما ميزه عن الرومانسيين. استخدم "رمضان حمود" مظاهر الطبيعة كرموز محاولا جعلها إيحاءات لمشاعر خفية ونلمس هذا في قصيدته "يا قلبي" التي تعكس لنا بصدق حقيقة ما يعانيه الشاعر من حزن.

أنت يا قلبي فريد في الألم والأحزان ونصيبك في الدنيا الخيبة والحرمان

أنت يا قلبي تشكو هموما كبارا، وغير كبار

أنت يا قلبي مكلوم، ودمك الطاهر يبعث به الدهر الجبار

ارفع صوتك للسماء مرة بعد مرة

وقل اللهم إن الحياة مرة

أعني اللهم على اجتراعها

وامددني بقوة فإني غير قادر على احتمالها

اللهم إنها مرة ثقيلة فليس فيها طريقا

ويلاه! من هم يذيب جوانحي فكأنما في القلب جذوة نار
نفسي معذبة بهمة شاعر دمعي على رغم التجلد جار([24])

قدس الرومانسيون الحب، وقدسوا معه المرأة وكانوا يرونها مخلوقا هابطا من السماء وملاكا يطهر القلوب بالحب وترقى به العواطف ويزكي الشعور، فأحست المرأة بمكانتها في الأدب الرومانتيكي وشعرت بسلطانها وازداد غرورها والقلة اعتبرها شيطان. "رمضان حمود" هو الآخر وظف عاطفة الحب في أشعاره باعتباره شعورا قويا وعاطفة نبيلة لكن وبخلاف الرومانتيكيين لم يقصد بالحب ذلك الإحساس الذي يربط الرجل بالمرأة، بل كان حبه أكبر من كونه مجرد عاطفة فردية بل وجهه إلى الوطن الحبيب "الجزائر" ولمس بعضها من هذا الحب في تغزله بالحرية المنشودة:

لا تلمني في حبها وهواها لست أختار ما حييت سواها
هي عيني ومهجتي وضميري أن روحي وما إليه فداها
أن عمري ضحية لأراها كوكبا ساطعا ببرج علاها
فهنائي موكل برضاها وشفائي مسلم بشقاها
إن قلبي في عشقها لا يبالي تنطوي الأرض أم يخر سماها
قد قضى الله أن تكون كصوت وقضى أن يرد روحي صداها
إن في العشق رحمة وعذابا وعذاب العشيق شوب جناها
لم أنل من حبيبي إلا صدودا وصدود الحبيب نار وراها
هجرتني من غير ذنب، ولكن كل ذنبي في كون قلبي اصطفاها([25])

7. إسهامات رمضان حمود في النقد:

غاب النقد عن الساحة الأدبية الجزائرية، ولم يوجد بأي صورة خاصة (تطبيقا) ويؤكد محمد السعيد الزاهري على هذا ويرجع ضعف النقد إلى مفهومه التقليدي الذي لا يتعدى الاهتمام بالبيت في القصيدة دون مراعاة منه لأحاسيس الشاعر وتجربته الخاصة، ومن خلال هذا المضمار لا يمكن أن نغفل جهود "رمضان حمود" النقدية والتي جعلته من

أبرز نقاد المغرب العربي المجددين. كما كانت له عدة مواقف من الشعر التقليدي وعدة حلول للنهوض بالأدب عامة وبالشعر خاصة.

إن المتأمل في مقولات وآراء حمود النقدية، يدرك بسهولة مدى الوعي النقدي والحسّ الشعري المرهف الذي كان يتمتع به هذا الناقد والشاعر وإدراكه للدور الهام والخطير الذي يلعبه الشعر الهادف بمعية النقد التوجيهي والإلتزامي الناتج عن الوعي الفكري.

كما زاوج الناقد بين النظرة الإصلاحية والأدبية في مواقفه النقدية، كونه لم ينبهر بالأدب الغربي ولم يغفل جوانبه السلبية وبالمقابل لم يتنكر لمحاسن الشعر العربي القديم حين عرض سلبياته ووضح رأيه عن الترجمة إذ قال: "أنا لا أقصد بالترجمة، الترجمة اللفظية، والاختلاس والمسخ وقتل الأدب بسيف الأعجمية شر قتلة... بتحطيم الأوضاع والقواعد الأساسية والبلاغة العربية، والامتيازات والفروق التي يبنى عليها أدب كل قوم... ولكني أقول وأكرر بكل حرية _ولا أفوه إلا بما أعتقد_ أن الأدب العربي مريض ومشرف على الهلاك، إن لم يتداركه أبناؤه في عصر يخالف تمام المخالفة عصوره المتقدمة الغابرة. فهو محتاج إلى دواء ناجع، يوافق علته ومزاج طبيعته المنغمسة في حالة الجو الحاضر... فإن لكل زمان رجال، ولكل جيل أدب مخصوص به، لا يلزم أن يقلده الجيل الذي يليه من بعده ولا هو يتوقف على من قبله([26]).

لقد ثار الناقد على القيم الشعرية السائدة على مستوى الشكل أو المضمون قائلا: "قد يظن البعض أن الشعر هو ذلك الكلام الموزون المقفى، ولو كان خاليا من معنى بليغ، وروح جذّابة، وأن الكلام المنثور ليس بشعر، ولو كان أعذب من الماء الزلال وأطيب من زهور التلال، وهذا ظن فاسد..."([27]). وعاد حمود إلى أقدس مصدر ليبرهن على فكرته فيقول: "ولو أنهم قصدوا بالشعر الوزن والقافية، لما قالوا في بداية الدعوة المحمدية _ على صاحبها أفضل السلام_ أن القرآن شعر، وأن صاحبه شاعر مجنون. مع علمهم أنه كلام مرسل، لا أثر للوزن والقافية فيه، وأن صاحبه لم يسمع منه بيتا في سوق من أسواقهم، ولا في مجتمع من مجتمعاتهم، ولا تحدث عنه بذلك.([28])"

وبما أنه تأثر تأثرا شديدا بالمنهج الغربي، جعله يؤيد رأي "شابلن" الذي يعتبر الشعر نطق بالحقيقة العميقة التي يشعر بها القلب والشاعر الصادق قريب من الوحي([29])

فالشعر في نظر "حمود" ليس مجرد وزن وقافية، بل هو حسّ مرهف وشعور صادق وخيال خصب.([30])

لقد وقف ثائرا على قدسية الوزن والقافية حيث تكمن الشعرية في النثر كما تكمن في الشعر، وحاول الناقد أن يبرهن على ما قاله بإتيانه بمقطوعات شعرية لا وجود للقافية فيها وأخرى لا أثر للوزن فيها ولكن مع التزام القافية، واهتم أيضا بشكل القصيدة ومضمونها معا، فهما عنده متكاملان ملتحمان، لا يمكن الفصل بينهما. ومن ثم يظهر أن له رأيا واضحا من عمود الشعر يلتقي مع ما ذهب إليه العقاد وميخائيل نعيمة مع نهاية العقد الثاني من القرن العشرين، والذين يلتقون جميعا مع ما سنه المذهب الرومانسي الغربي الذي لخص مفهوم الشعر في التعبير عن كنه الحقيقة وفق ما تترآى للنفس البشرية التي تنطلق من جوهر الحياة، وتنشد الثورة والتغيير من أجل بلوغ الحقيقة المنشودة([31]).

8. مظاهر التقليد عند رمضان حمود:

بدأت النهضة الأدبية في الجزائر مع بداية الحركة الإصلاحية سنة 1925م، وتأثر معظم الشعراء الشباب الإصلاحيين بشعراء الوطن العربي أمثال: "أحمد شوقي"، "حافظ إبراهيم"، "معروف الرصافي"، وترك شعر مدرسة الإحياء بصمات واضحة في الشعر الجزائري الحديث ولكن "رمضان حمود" رغم انتمائه إلى هذه الحركة، استطاع أن يتحرر قليلا من هذه النظرة التقليدية، ويضع للشعر مفاهيم متطورة وينظر للإبداع الفني من خلال منظور رومانسي جديد، كما استطاع أن يعرض نظريات نقدية حول الشعر إلا أنه أخفق في تطبيقها تطبيقا كاملا حين استبدل الشعر بالنقد، فقد كان في أغلب قصائده مقلدا ملتزما بالعمود الشعري([32])، وقد ظهر هذا جليا في شعره وسنبينه في مجموعة من العناصر المرفقة بنماذج من شعره:

_تأثر "رمضان حمود" ببعض القصائد العربية الشهيرة كلامية الطغرائي _الشهيرة بلامية العجم_ والتي مطلعها: أصالة الرأي صانتني عن الخطل، فعارضها بقصيدة أخرى وتتبع فيها خطوات الطغرائي حيث قال:

أعانق الحق في قول وفي عمل وأنهض القوم أن مالوا إلى الكسل

فلا أداهن قومي أن هم اقترفوا ذنبا بلابس وجه الحق بالخجل
ولا أعيش بأرض الذل مكتئبا فالذل من شيمة الأنذال والسفل
وأبذل النفس في سبل الحياة فدى ولا أعول في الدنيا على رجل
فهاته غايتي بالجد أبلغها وابنتي منزلا في دارة الحمل([33])

ويستمر الشاعر في تقليد الطغرائي مرة أخرى في قصيدة حيى بها شيخ الصحافة الجزائرية "أبا اليقظان" بمناسبة صدور جريدته الأولى (وادي ميزاب) عام 1926م قائلا :

إن الصحافة نور للبلاد إذا سارت موفقة في أحسن السبل
هي الفؤاد لشعب قد غدا سكنا هي الحسام طويل الحول والحيل
هي اللسان لها حكم وسيطرة هي الرسول لدى الأجناس والدول([34])

وعارض بائية أبي تمام في فتح العمورية والتي مطلعها: "الله أكبر كم في الفتح من عجب" بقصيدة يظهر فيها إعجابه وتحمسه لموقف (عبد العزيز آل سعود) الإصلاحي في ملاحقته للخرافات والبدع، قائلا:

الله أكبر نجم العرب فقد سطع وبات دين الهدى في الأرض مرتفعا
فتح من الله والنصر المبين أتى فحقق الله آيات بها صدعا
في الشرق قاطبة سر الحياة نما وكان فيما مضى بالذل مقتنعا
في كل ناحية نار مؤججة تحرق الجهل والإرهاق والبدعا([35])

_إعجاب رمضان حمود بالتراث العربي الأصيل وتأثره بالمصادر، جعله يقتبس منها ويضمّن الأثر المقتبس في ثنايا شعره، فاستقى من القرآن الكريم في مثل قوله:

وحيثما كنتم ولوا وجوهكم وجهدكم شطر شمس العلوم واندفعوا

يوجد في هذا البيت الشعري اقتباس للآية الكريمة الواردة في سورة البقرة "وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره"

ونجد الاقتباس عن الشعر في قوله:

فسِر ودع قول من خست مقاصده في طلعة الشمس ما يغنيك عن زحل

يوجد اقتباس من لامية العجم للطغرائي.

وضمّن أبياته أمثالا عربية شهيرة كقوله مثلا:

منهاجه آية للناس ساطعة وهو أشهر من نار على قلل([36])

يوجد تضمين للمثل الذي يضرب للشيء إذا اشتهر: أشهر من نار على علم.

_وجود النزعة الخطابية في شعر "رمضان حمود: نلمس النزعة الخطابية في شعره، حيث جاءت أغلب قصائده من هذا النوع الخطابي المباشر ولا يختلف بعضها عن بعض إلا في حدة حماسها ودرجة حرارتها وخير مثال على النزعة الخطابية المباشرة قصيدته المعنونة بـ: أيها الناس اسمعوا وعوا والتي يقول فيها:

إلا يارجال الشعب! ويحكم هبّوا فقد عمّت البلوى كما استفحل الخطب
فشيدوا على هام النجوم بيوتكم وكونوا إلى الخيرات همتكم تصبو
أفيقوا فلا عيش يطيب لراقد وصونوا لنا مجدا ليفتخر الشعب
تراكم داء الجهل فوق ربوعكم وهذي بيوت العلم عاش بها الجدب
ألا خففوا عنا خطوبا جسيمة فإن طالت الأيام لا ينفع الطب([37])

_توفر قصائد "رمضان حمود" على الصور أكثر من غيرها، كما أنه في وصفه أقرب إلى الكلاسيكية منه إلى الرومانسية حيث يقف الكلاسيكيون من الموصوف موقفا خارجيا مكتفين بتصويره. وفي هذه المقطوعة يصف الشاعر منظر الطبيعة عند الغروب قائلا:

انظر إلى الكون البديع بنوره وظلامه وسكونه الروحاني
ونسيمه وهبوبه ومياهه وخريرها وجماله الفتان
وسحابه بسمائه متقطعا عند الغروب وهو أحمر قانٍ
متشتتا كالفلك في أمسائه فكأنه قطع من المرجان([38])

من خلال هذه الأبيات يظهر الفرق بين الوصف الرومانسي والوصف الكلاسيكي.

9. مظاهر التجديد عند رمضان حمود:

إنه الناقد الذي دعا إلى التجديد المبني على أسس تكاد تلتقي مع آراء العقاد وغيره حيث تميزت مواقفه بالجرأة والصرامة النقديتين في مجال التعامل مع النص الشعري التراثي([39])، الذي نادى بتجديده (شكلا ومضمونا) والتخلص من التقليد بقوله:([40])

ألا جددوا عصرا منيرا لشعركم فسلسلة التقليد حطمها العصر

وسيروا به نحو الكمال ورمموا معالمه حتى يصافحه البدر

وظل حمود ينشد التغيير والابتكار في أوسع مجالاتهما بقوله "شغفي بالتجديد في كل شيء فما بالك بالأدب الذي هو كل شيء"([41]). كما تتجلى نزعته التجديدية في دعوته إلى وجوب التخلي عن الوزن والقافية باعتبارهما قيدا للإبداع الشعري، وفي نفس الوقت لا يتنكر رمضان حمود للماضي فهو يعتز بالأمس، لأنه الدافع له على بعث حاضره ومستقبله وحرصه على خلود التراث والموروث هو الباعث له على تجديده وتلقيحه بما يكسبه عنصر الحيوية([42])، ويستدرك دعوته للتجديد بقوله "ليس التجديد آلة نهدم بها ما بناه أسلافنا، لكنه قوة غير متناهية نرمم بها الماضي، ونمهد بها للمستقبل"([43])، والملاحظ من خلال هذا القول أنه يقصد التجديد البناء وليس التجديد من أجل التجديد فقط، فيريد من التجديد أن يغدو إلى الأمام، وفي هذا المقام يجب أن لا نغفل ما سجله حمود من مآخذ على شوقي رغم اعترافه له بالريادة والإمارة في الشعر فيقول "إن شوقي قد أحيا الشعر العربي، وقد أعاد للقصيدة العربية رونقها وجمالها ولكنه مع ذلك كله _على حد تعبيره_ لم يأت بشيء جديد لم يعرف من قبل أو سن طريقة ابتكرها من عنده"([44])، وخاصة به دون غيره أو ربما يخترع أسلوبا يلائم العصر الحاضر، وهنا يلوم حمود شوقي على عدم تأسيسه لشخصيته الفنية خاصة وأن إمكانياته الإبداعية تؤهله إلى ذلك بقوله "أنا لا أقول أن شوقي ليس له بعض القصائد التي تحوم حول السياسة والاجتماع خصوصا في هذه السنين الأخيرة بعد الحرب العالمية كالتي بكى فيها دمشق أخيرا تحت عنوان (ظهر الإسلام) وأنه غير قادر على ذلك _معاذ الله_ ولكن أريد أن أقول: من يجود بمثل (صدى الحرب) وكيان حوادث وادي النيل بنفس واحد، لا يتخللها ملل ولا ضعف ولا قصور لقدير وأيم الله، وقدير على أن يدمج ببراعة السيال، وفكرة الجوال آيات شعرية، (دراماتيكية) هائلة حماسية، وطنية عالية، يتضاءل بجانبها شعر (فولتير) و(لا مارتين) وروايات (شكسبير) و(هيغو)"([45]). ومن خلال هذا النص نسجل أن رمضان حمود لم يحصي مآخذ أحمد شوقي من أجل الإنقاص من قيمته أو تقبيح إنتاجه الشعري عكس العقاد وذلك باستثماره للجوانب الإيجابية التي أثارها أمير الشعراء، ولا سيما في الشعر القصصي والمسرحي الذي كان له فضل السبق في بلورته.

لقد كان حمود يدعو دائما إلى أدب هادف يخدم الأفكار التي تربط بين أفراد الأمة، ولن يتحقق هذا إلا بأدب تسعى الطبقة المتعلمة في وضعه وبثه بين المجتمع، يجب على الشعراء الكبار أن يتنازلوا إلى مخاطبة الطبقة الوسطى والسفلى من الأمة أي العامة التي هي هيكل الشعور ومرجعها الوحيد عند المدلهمات ويقتدوا بشعراء فرنسا وأدبائها الكبار إبان انفجار بركان الثورة الكبرى([46])، والملاحظ أنه كان شديد الإعجاب بمواقف شعراء الثورة الفرنسية، وقد حمل الشعراء المشارقة مسؤولية انحطاط الوطن العربي لأنهم ارتدوا ثوب الجمود والتقليد ونسوا واجبهم الوطني الشريف، ومالوا إلى اللهو والترف والمجون فنسخت العامة على منوالهم، فمات الشعور القومي، والميزة الشرقية، وتلبدت غيوم الجبن وحب الذات على العقل ومسخت النفوس، وعم الوبال جميع الطبقات([47])، ومن هذا الباب نذهب إلى قولنا أن حمود قد آمن بعبقرية شوقي الشعرية التي لا تقل شأنا عن عبقرية شعراء أوربا.

دعا "رمضان حمود" إلى تطعيم الأدب العربي بالأدب الغربي عن طريق الترجمة "إن عوامل الانقلاب والتغيير في مملكة الأدب كثيرة لا تحصى، وأهمها الترجمة الصحيحة أو التعريب الذي يقطع به مسافة بعيدة من مركز التقليد إلى غاية التقييد"([48]). ويقترح إرسال بعثات علمية إلى أوربا من نخبة الشباب لدراسة جميع اللغات.

10. خاتمة:

ما يسعنا في خاتمة هذه المداخلة إلا أن نضم رأينا إلى من قال أن حمود هو أول من فتح باب التجديد في الشعر الحديث خاصة في الشعر الجزائري كما يعد واحدا من أقطاب النقد العربي الحديث الذين أرسوا دعائم النظرية الرومانسية في الشعر العربي. لقد كان يدعو في نقده وشعره بوعي وفهم إلى أدب يحمل مضامين إنسانية، ثورية صادقة، متميزة مما جعل أفكاره النقدية تكشف عن حس نقدي عميق لدى هذا الشاعر الشاب وعن نظرة نقدية مهمة، وعن التزام واع بأهمية الشعر وخطورته _على حد تعبير عبد الله الركيبي_ فبالرغم من قصر عمره الابداعي وعلى الرغم من أن بيئة الشعراء الجزائريين لم تكن مساعدة آنذاك إلا أنه استطاع أن ينفذ من باب واسع.

إن القيمة الحقيقية لإنتاج "رمضان حمود" تتجلى في مضامينه الفكرية وسبقه المبكر إلى طرح بعض القضايا وطريقته الواضحة في تناولها وإبرازها على حد قول محمد مناصر. بالفعل كان أديبا فذا وصحفيا بارعا، وشاعرا التحمت الثورة به في جميع أعماله، اختصرته المنية في عمر الزهر إلا أن الجميع شهد له بالريادة والسبق في معالجة بعض الأنواع الأدبية في الجزائر، وقد تنوع إنتاجه (شعرا، ونقدا، ومقالة، وخواطرا).

11. المصادر والمراجع:

_ ابراهيم رماني، الغموض في الشعر العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، د ط، الجزائر

_ بوجمعة بوبعيو، إسهامات رمضان حمود في نقد الشعر العربي الحديث، الملتقى الوطني الأول حول النقد الأدبي الجزائري، جامعة عنابة، 21 و22 ماي 2006م.

_ رمضان حمود، بذور الحياة، مكتبة الاستقامة، تونس، 1928م

_ شريبط أحمد شريبط، مباحث في الأدب الجزائري المعاصر، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، ط 1، الجزائر، 2001م

_ صالح خرفي، حقيقة الشعر وفوائده، سلسلة مقالات منشورة في مجلة الشهاب، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985م

_ صالح خرفي، حمود رمضان، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م

_ عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، ط 1، 1981م

_ عمار بن زايد، حركة النقد الأدبي الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، د ط، الجزائر، 1990م

_ عيسى بلاطة، الرومانتيكية ومعالمها في الشعر العربي الحديث، دار الثقافة، د ط، بيروت، 1960م

_ مجموعة أساتذة من جامعة الإخوة منتوري قسنطينة، موسوعة الشعر الجزائري، دار الهدى، الجزائر، الجزء الأول، 2002م

_ محمد كناي، الشعر الاصطلاحي الجزائري الحديث "قضاياه المعنوية والفنية"، رسالة ماجستير، 1993م

_ محمد مصايف، النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط 1، الجزائر، 1984م

_ محمد ناصر، رمضان حمود، حياته وأثره، وزارة المجاهدين، ط 2، الجزائر، 2008م

_ محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، دار العرب الإسلامي، ط 1، لبنان، 1985م

_ يوسف ناوري، الشعر الحديث في المغرب العربي (الجزء الأول)

_ الموقع الالكتروني: https://www.asjp.cer.st.dz>downarticle

12. الهوامش:

1 - مجموعة أساتذة من جامعة الإخوة منتوري قسنطينة، موسوعة الشعر الجزائري، دار الهدى، الجزائر، الجزء الأول، 2002م ص435.

2 - محمد ناصر، رمضان حمود، حياته وأثره، وزارة المجاهدين، ط 2، الجزائر، 2008م، ص 17.

3- المرجع نفسه، ص 25.

4- يوسف ناوري، الشعر الحديث في المغرب العربي (الجزء الأول)، ص 191، 192.

5- محمد ناصر، رمضان حمود، حياته وآثاره، ص 62، 63.

6- رمضان حمود، بذور الحياة، مكتبة الاستقامة، تونس، 1928م ، ص 113.

7- المصدر نفسه، ص 113.

8- المصدر نفسه، ص 10، 11.

9- المصدر نفسه، ص 126.

10- المصدر نفسه، ص 127.

11- صالح خرفي، حقيقة الشعر وفوائده، سلسلة مقالات منشورة في مجلة الشهاب، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1985م، ص 44.

12- المصدر نفسه، ص 83.

13- محمد ناصر، رمضان حمود، حياته وآثاره، ص 84.

14- عمار بن زايد، حركة النقد الأدبي الجزائري الحديث، المؤسسة الوطنية للكتاب، د ط، الجزائر، 1990م، ص 83.

15- المرجع نفسه، ص 85.

16- محمد مصايف، النقد الأدبي الحديث في المغرب العربي، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط 1، الجزائر، 1984م، ص 165، 166.

17- المرجع نفسه، ص 128، 129.

18- شريبط أحمد شريبط، مباحث في الأدب الجزائري المعاصر، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، ط 1، الجزائر، 2001م، ص234.

19- المرجع نفسه، ص 236.

20- محمد كناي، الشعر الاصطلاحي الجزائري الحديث "قضاياه المعنوية والفنية"، رسالة ماجستير، 1993م، ص 283.

21- عيسى بلاطة، الرومانتيكية ومعالمها في الشعر العربي الحديث، دار الثقافة، د ط، بيروت، 1960م، ص 51.

22- محمد ناصر، الشعر الجزائري الحديث، دار العرب الإسلامي، ط 1، لبنان، 1985م، ص 115.

23- ابراهيم رماني، الغموض في الشعر العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، د ط، الجزائر، ص 87، 88.

24- محمد ناصر، رمضان حمود، حياته وآثاره، ص 246.

25- المرجع نفسه، ص 239.

26- رمضان حمود، بذور الحياة، ص 85.
27- نفسه، ص 103.
28- صالح خرفي، حمود رمضان، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1985م، الملحق ص 102.
29- رمضان حمود، بذور الحياة، المصدر نفسه، بتصرف قليل، ص 13.
30- عبد الله الركيبي، الشعر الديني الجزائري الحديث، ط 1، 1981م، ص 641.
31- بوجمعة بوبعيو، إسهامات رمضان حمود في نقد الشعر العربي الحديث، الملتقى الوطني الأول حول النقد الأدبي الجزائري، جامعة عنابة، 21 و22 ماي 2006م.
32- محمد ناصر، رمضان حمود، حياته وآثاره، ص 46.
33- المرجع نفسه، ص 47.
34- نفسه، ص 48.
35- نفسه، ص 49.
36- نفسه، ص 51.
37- نفسه، ص 53.
38- نفسه، ص 56.
39- الموقع الالكتروني: https://www.asjp.cer.st.dz>downarticle
40- صالح خرفي، حقيقة الشعر وفوائده، المرجع السابق، ص 45.
41- صالح خرفي، رمضان حمود، المرجع السابق، ص 61.
42- المرجع نفسه، ص 60.
43- المرجع نفسه، ص 60.
44- بذور الحياة، المصدر نفسه، ص 115.
45- صالح خرفي، حمود رمضان، المرجع السابق، ص 110.
46- بذور الحياة، المصدر نفسه، ص 26، 27.
47- المصدر نفسه، ص 105.
48- نفسه، ص 87.